الاختراق الإعلامى للوطن العربى

الدكتور راسم محمد الجمال (*)

ملاحظات أولية

فى البدء نود أن نستهل هذه الدراسة بمجموعة من الملاحظات الأولية التى نراها لازمة لتبيان جذور الموضوع وأبعاده .

وأولى هذه الملاحظات أن ظاهرة الاختراق الإعلامى التى يراها البعض ظاهرة تكنولوجية إعلامية هى فى واقعها «حديث فى السياسة» ؛ بل لا مفر من الخوض فى الأبعاد السياسية للظاهرة ، ومع ذلك فإن معالجة الموضوع من منظور أيديولوجى سوف يسقطنا فى متاهات السفسطة والانطلاق فى اتهام الآخرين ، وسبرأو إغفال عجزنا الذى آن الأوان لاستظهاره والاعتراف به ، ومع ذلك فإن معالجة القضية من جانبها السياسى ينبغى أن تنحو منحى عمليا ، فالمشكلة أخطر من أن تكون موضوع نقاش واهتمام المثقفين وحدهم ، وإنما تمتد لتقع مباشرة تحت مسئولية قادة نظم الإعلام ومديريه .

على أنه لاينبغى إقحام السياسة إقحاما فى معالجة الظاهرة (١) ، بل يجب

(*) الاستاذ بكلية الإعلام - جامعة القاهرة .

(١) نود هنا أن نستعير تعبير محمد الباقى هرماسى : «إن أى محاولة للزج بالسياسة والثقافة فى قالب واحد لن تكون نتيجته إلاكارثة محققة ، ومن هنا فإن الوطن العربى سيظل يتكلم على الأرجح بأصوات متعددة ، وتكمن مهمة عالم الاجتماع فى تمييز الأصوات من النشاز . ولقد كان همنا أن نرسم حدودا وظروفا يمكن فى إطارها تأكيد الأصالة والحضارة دون أن يترتب على ذلك بالضرورة عجز سياسى ويمكن الحفاظ على فعالية العمل السياسى دون أن يترتب على ذلك بالضرورة عجز سياسى» . محمد الباقى هرماسى ، «السياسة والثقافة فى الوطن العربى» ، المستقبل العربى ، السنة ٥ ، العدد ٤٥ ، تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٨٥ ، ص ٢٢ .

[مجلة البحوث والدراسات العربية ، ع ٢١ ، ١٩٩٣ - ص ص ١١٣ - ١٣٤]

الخوض فيها من حيث أنها مكون حقيقى ملموس لظاهرة قائمة ، لاتكتمل معالجة الظاهرة إلا به . إن معالجة هذه الظاهرة ذات العلاقة العضوية بقضايا مثل الغزو الفكرى أو التحاور والتفاعل الثقافى من مناظير أيديولوجية قد انتهت بنا إلى معالجات تمثل فى حد ذاتها غزواً ثقافياً ، وسفسطة لمجموعة من المثقفين تقع عليها مسئولية جانب من الغزو الفكرى (٢) .

فلماذا يهاجم الأيديولوجيون الغزو الثقافى الوارد من الغرب ، ويغضون الطرف عن الغزو الوارد من مصادر أخرى على الرغم من أنها يمكن أن تكون أكثر خطورة (٣) .

(٢) نود أن نلفت الانتباه إلى أن مفهوم الغزو الثقافى أو الامبريالية الثقافية قد نشأ منذ منتصف عقد الخمسينيات مع مولد حركة عدم الانحياز ، حيث أشار البيان الختامى لمؤتمر باندونج إلى أن الامبريالية القائمة فى كثير من أجزاء آسيا وأفريقيا ، مهما كان الشكل الذى تأخذه ، لا تعوق فقط التعاون الثقافى بين الشعوب ، ولكنها تكبت أيضا الثقافات الوطنية للشعوب . وإن قوى الاستعمار تنكر على الشعوب المستعمرة حقوقها الاساسية فى مجالات التعليم والثقافة على نحو يعوق تنمية شخصيتها ويعوق أيضا التفاعل الثقافى مع الشعوب الأخرى ومنذ ذلك الوقت ارتبط التحرر الثقافى بالتحرر السياسى ، وأصبحت الامبريالية الثقافية جزءاً لا يتجزأ من الامبريالية وأصبح الهجوم على الامبريالية بالتالى يشمل أيضا الامبريالية الثقافية .

انظر :

Tran Van Dinha, "Nonalignment and Cultural Imperialism", in Kaarl Nordenstreng & Herbert Schiller, eds, National Sovereignty and International Communication, New Jersey, Ablex Publishing Corporation, 1979, PP. 262- 263.

(٣) و «العلم يخضع ، أو ينبغى له أن يخضع لمطلب التفكير المستقل متحررا من القيود فى إختيار موضوعاته وفى مناهجه وأساليبه ، ويلتزم بالمناقشة والنقد اللذين لا يتقرران الامن وجهات نظر علمية ، ويتوصل إلى إقامة النظريات التى تظل بدورها خاضعة لمزيد من الفحص والتمحيص كما أن القضايا العلمية لا تستند إلا إلى البينات والشواهد والبراهين . وليس من الحقائق ما يتحول إلى ضرب من الإيمان . أما الأيديولوجية – كما يقول كولا كوفسكى – فإنها على النقيض من ذلك لا تمارس نفوذها حتى عندما تعمل على صعيد الأساليب الفكرية المحضة ، عن طريق الأساليب العقلية، بل بواسطة الشعارات ومن خلال العواطف ومناشدة السلطات، وعلى الرغبات والأحكام المسبقة».

انظر : محمد السيد سليم ، «تصميمات البحوث غير التجريبية بين النظرية والتطبيق» ، فى ودودة بدران ، محرر ، تصميم البحوث فى العلوم الاجتماعية ، القاهرة ، مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ نقلا عن صلاح قنصوة ، الموضوعية فى العلوم الاجتماعية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .

جلال كشك ، الماركسية والغزو الفكرى ، الطبعة الثانية (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦) .

والملحوظة الثانية هى أن الاختراق الإعلامى فى بعض أشكاله ظاهرة عالمية «طبيعية» ، وليست مقصورة على مناطق معينة أو دول معينة ، مكّن لها وطورها التطور التكنولوجى المطرد فى مجالات الاتصال خاصة مجال الأقمار الصناعية والاتصالات السلكية واللاسلكية . وهذا التطور التكنولوجى زاد على نحو مطرد من الفجوة المعرفية والاتصالية والتكنولوجية بين الدول . ومع ذلك فلا ينبغى معالجة موضوع لاختراق التكنولوجى من منظور تكنولوجى بحت ، لإن امتلاك تكنولوجيات حديثة فى مجالات الاتصال لا يعنى المشاركة فى الظاهرة أو القدرة على تجنب آثارها ، ولا تعنى حيازة الدولة لتكنولوجيات متقدمة قدرتها على التمدد خارج حدودها الوطنية ، ولدينا فى الوطن العربى أمثلة على ذلك . ففى واقعنا العربى ومنذ منتصف عقد السبعينيات ، ثمة أقطار عربية حائزة لأحدث تكنولوجيات الاتصال ولكنها عاجزة عن إنتاج حتى احتياجاتها المحلية من المضامين التليفزيونية .

ومن ناحية ثانية ، فإن ربط الاختراق الإعلامى بالتقدم التكنولوجى يجعلنا نسقط أشكالا من الاختراق الإعلامى أكثر خطراً من أشكال الاختراق المرتبطة بالتقدم التكنولوجى ، وهو ما سنلاحظه عند طرح أشكال الاختراق الإعلامى .

والملحوظة الثالثة هى أن أشكال الاختراق الإعلامى كثيرة ومتنوعة ، بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر غير ظاهر ، وهو الأكثر خطورة ؛ وبعضها متعمد وبعضها الآخر غير متعمد ، وبعضها نافع ومطلوب وبعضها الآخر ضار وشديد الضرر ؛ بعضها يمكن التحكم فيه وبعضها الآخر لا يمكن التحكم فيه . وجمع كل هذه الأشكال فى سلة واحدة سوف يوقعنا فى تناقضات كثيرة مع أنفسنا ، ومع واقعنا ، ومع البيئة الدولية التى نعيش فيها بمتغيراتها العديدة .

وتجرنا هذه النقطة إلى ضرورة تحديد المقصود بالاختراق الإعلامى . هل يمكن اعتبار كل المضامين الإعلامية التى تتجاوز حدود الدولة اختراقاً إعلاميا لدولة أو لدول أخرى ؟ بالطبع لا . ولو أخذنا بهذا المفهوم لاعتبرنا توزيع الصحف والمجلات والكتب المنتجة فى قطر عربى فى أقطار عربية أخرى إختراقاً إعلاميا

لهذه الأقطار ، ولاعتبرنا البث الإذاعى الذى يستقبل فى أقطار عربية اختراقاً إعلاميا من قبل أقطار عربية أخرى ، ولاعتبرنا وصول البث التليفزيونى لبعض الأقطار العربية إلى أقطار أخرى نتيجة لعوامل الطقس اختراقاً إعلاميا .. إلخ . إن مثل هذه المضامين لاينبغى اعتبارها اختراقاً إعلاميا لأنها فى الأغلب لاتضر ولا تحمل إمكانية الإضرار بالهويات الثقافية للأقطار التى تنساب إليها ، وعامل الإضرار أو إمكانية الإضرار فى تقديرنا - هو العامل الحاسم الذى ينبغى أن نفرق به بين ما يعتبر إختراقاً إعلاميا وما لا يعتبر كذلك ، بغض النظر عن الوسيلة التى نقل بها هذا المضمون ، وبغض النظر عما إذا كانت قد استخدمت تكنولوجيات حديثة فى نقله أم لا .

وتتعلق الملحوظة الرابعة بتحديد مسئولية كل شكل من أشكال الاختراق الإعلامى ، وبمعنى آخر أنه عند مناقشة كل شكل من أشكال الاختراق الإعلامى علينا أن نسأل أنفسنا سؤالين مهمين : ما الضرر الواقع من هذا الاختراق ؟ ومن المسئول عنه ؟ هل فرض علينا أم أننا نحن الذين سعينا وراءه ؟

أشكال الاختراق الإعلامى

إذا أخذنا الإضرار أو إمكانية الإضرار كعامل محدد لماهية المضامين الإعلامية التى نعتبرها اختراقا إعلامياً ، فيمكننا بالتالى عرض أبرز أشكال الاختراق على النحول التالى :

أولا : وكالات الأنباء والشبكات الإخبارية المصورة :

لن يتفق معنا البعض على أن وكالات الأنباء الدولية وشبكات الأخبار الدولية المصورة تمثل أخطر أشكال الاختراق الإعلامى ؛ ولكننا نعتبرها كذلك لأنها المصدر الأساسى ، والوحيد فى أغلب الأحوال لمعرفتنا بما يجرى حولنا وشرح وتأويل هذه الأحداث ، وبناء تصورنا للقوى والعلاقات والأدوار والمصالح ، وتصورنا للأخطار التى تهددنا ، وتلعب دوراً أخطر عندما تحدد لنا وبصور شتى الأدوار التى علينا أن نلعبها فى البيئة الدولية المتصارعة من حولنا ؛ والأخطر من

كل ما سبق أن هذه المصادر الإخبارية تعد فى كثير من الأحيان المصدر الأساسى لمدخلات صنع السياسة الوطنية فى المجالات الخارجية والأمن والدفاع.

لايوجد قطر عربى واحد يستطيع أن يزعم أنه يملك القدرة الذاتية على إشباع احتياجاته الاخبارية الخارجية حتى على المستوى الإقليمى الضيق ، صحيح أن بعض وكالات الأنباء القطرية نشطة إلى حد ما على بعض المستويات الإقليمية ، وتتمتع خدماتها الاخبارية بمستوى جيد ، إلا أن الاعتماد الأساسى يظل منصبا على الوكالات والشبكات الدولية الغربية التى لايوجد بديل عنها فى الحاضر وفى المستقبل المنظور . وصحيح أن لبعض وسائل الإعلام القطرية شبكة من المراسلين فى الخارج ، إلا أن عمل هؤلاء لا يتعدى فى الغالب نقل ما يقرءون أو يشاهدون فى وسائل الاتصال فى العواصم الغربية التى يبعثون إليها ، ونادرا ما يمارسون عملا إعلاميا حقيقيا ، أقله أن يستقوا بأنفسهم أخبارهم من مصادرها الأساسية .

ولايتجاوز عمل بعض وكالات الأنباء القطرية تلقى برقيات وكالات الأنباء الغربية وغربلتها فى ضوء توجهات السلطة أو تعليماتها المباشرة مع ما يتطلبه ذلك من حذف وإضافة وإعادة صياغة ، أو منع نشرها ، ثم إعادة توزيعها على وسائل الاتصال المحلية .

والتعاون القائم حاليا على المستوى القومى فى المجال الإخبارى هزيل ، وأهون مما كان عليه قبل أزمة الخليج ، حيث يتأثر هذا التعاون منذ ميلاده بالمتغير السياسى تأثرا مباشرا . ومع ذلك فإن ثمة مستويات طيبة من التعاون بين وكالات أنباء دول مجلس التعاون الخليجى ، وعلى المستوى الثنائى بين بعض الأقطار العربية .

وكل التنظيمات الإخبارية الدولية والإقليمية التى شارك العرب فى تأسيسها لتنمية التبادل الإخبارى على المستويات الدولية والإقليمية إما أنها هزيلة وقليلة الفعالية (مجمع وكالات أنباء دول عدم الإنحياز ووكالة الأنباء الإسلامية) وإما أنها غير موجودة سوى على الورق (وكالة الأنباء الأفريقية) .

وعلى الرغم من مرور أكثر من عشر سنوات على وضع المشروع العربى لإقامة وكالة أنباء عربية دولية ، فإنه لم ينقل نقلة واحدة من فوق الورق إلى أى مكان آخر ، ولم ير أى بصيص من النور ، ولم ينعقد للآن مؤتمر القمة العربى الذى يدرج المشروع فى جدول أعماله ، وليس فى المستقبل المنظور انعقاد هذا المؤتمر [٤] .

إذن فالعرب غير قادرين على كل المستويات على تدبير احتياجاتهم على المستويات القطرية والقومية من الأنباء الخارجية ، ومعتمدون على مدار الأربع والعشرين ساعة على وكالات الأنباء الغربية .

وهذه الوكالات الغربية لم تقم أصلا ، ولاتسعى ، وليس من وظائفها ، وليست ملزمة بأى شكل بإشباع احتياجاتنا من الأنباء الخارجية ، فهى منظمات خاصة أقيمت وتعمل فى إطار نظام اقتصادى حر ، بهدف تحقيق مصالح نظمها، وإشباع احتياجات هذه النظم من الأخبار ، وتحقيق عائد مادى لأصحابها . فعلى الرغم من عالمية أنشطتها وعملياتها ، فكلها تقع وتدار وفقا لمصالح الدول الغربية واهتماماتها ومعاييرها التقليدية ، ومن ثم تحرص هذه الوكالات على إنتاج وتسويق الأخبار المطلوبة أساساً لأسواقها الأكثر ربحية فى الولايات المتحدة وغرب أوروبا ، وتتنافس فيما بينها على هذه الأسواق ، فى الوقت الذى لاتشكل فيه الأسواق العربية دخلا مربحاً لها .

وعلاوة على ما سبق تمثل هذه الوكالات وتخدم مصالح النظم السياسية والاقتصادية والثقافية التى تنتمى إليها ، وهى أداة أساسية لجمع المعلومات اللازمة لنظمها من كل أرجاء العالم وتنفيذ توجهات هذه النظم ومصالحها ، فكلها بلا استثناء تحصل على دعم حكومى وتوجيهات حكومية ، وتمتلكها وتديرها

---

(٤) انظر نص المشروع فى حسن صعب ، إعجاز التواصل الحضارى الإعلامى ، نحو وكالة عربية دولية للأنباء ، بيروت (ب . ن) ، ١٩٨١ .

مؤسسات مملوكة لشركات البترول العالمية والاتحادات الاحتكارية التى يتركز نشاطها الأساسى خارج نطاق الإعلام (٥) .

والملاحظ أن العرب لا يهتمون فعلا بوضع سياسات إعلامية تفى بإشباع احتياجاتهم القطرية من الأنباء اعتمادا على الذات ، ونلحظ أحيانا بعض الأقطار العربية غير قادرة على تحديد احتياجاتها الفعلية من الأنباء . والثابت أن العرب منساقون - بدرجات متفاوتة - وراء ما تحدده الوكالات الدولية الكبرى من إهتمامات ومن موضوعات ، وبقلدون طرق معالجتها الصحفية وأساليب تحريرها .

وتعتبر وكالات الأنباء المصورة (٦) ، والشبكات التليفزيونية الإخبارية المصدر الرئيسى - وأحيانا الوحيد بالنسبة لبعض الأقطار العربية - لاستقاء الأنباء العالمية المصورة . وتتجاوز خطورة هذه الشبكات الإخبارية خطورة الوكالات التقليدية ، فى ضوء قدرتها على البث الفورى للأنباء المصورة على مدار

---

(٥) راسم محمد الجمال ، دراسات فى الإعلام الدولى - مشكلة الإختلال الإخبارى ، جدة ، دار الشروق ، ١٩٨٥ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٦) تأتى وكالتى VI SNEWS - UPITN على رأس وكالات الأنباء المصورة . وتتسم قوة هاتين الوكالتين بالعمومية من حيث قدرتها على وضع قواعد عامة تؤثر على المشاهدين فى دول معينة، وتلقينهم نمطا خاصاً من اللغة الإعلامية ، وغرس مجموعة من القيم التى تحمى مصالح واتجاهات منظمات معينة . وعموما تشمل المشكلات التى تثيرها هذه الوكالات ما يلى :

١ - تنميط الرسائل الإعلامية ، فإن إرسال مواد إعلامية خاصة لكل وسيلة اتصالية على حدة أمر بالغ التكلفة لاتستطيع وسائل الاتصال القطرية فى أغلب الأحوال تحمله ، ومن ثم فإن العدد المحدود من الأنباء المصورة التى ترسل إلى كل وسيلة لاتترك لها سوى مجالا ضيقا للاختيار.

٢ - أن نسبة كبيرة من المواد الإخبارية المصورة التى تبثها هذه الوكالات غير ذات موضوع بسبب عمليات الانتقاء التى يقوم بها الصحفيون العاملون فى هذه الوكالات ، والرغبة فى بث كل ما هو متوافر لكل المشتركين فى منطقة معينة .

٣ - تمارس هذه الوكالات تأثيرا سياسيا وثقافيا من خلال انتقاء الأنباء وصياغتها وتشكيلها فى قوالب معينة تمثل توجهات النظام السياسى والثقافى الذى تنتمى إليه .

٤ - يرى بعض النقاد أن الصور المقدمة من خلال هذه الوكالات ضارة بالدول الأخرى وتهيىء المشاهدين لتقبل السلع والخدمات التى يعرضها الغرب ، ومن ثم تساعد على تجانس العالم ثقافيا ، وتوسع أسواق الدول الغربية بصورة غير مباشرة فى نصف العالم الجنوبى . =

الأربع والعشرين ساعة ، والتى جعلتها المصدر الذى لا يستغنى عنه للمواطن العربى فى الأقطار العربية التى تسمح وتروج للاستقبال المنزلى لهذه الشبكات فى الداخل ، وتتهافت بجوارها قنوات التليفزيون المحلية بأخبارها المحلية وما تنتقيه وتغربله هذه القنوات من أخبار الشبكات الدولية . والقدرة على البث الفورى للأنباء العالمية على مدار الأربع والعشرين ساعة جعل هذه الشبكات الدولية المصدر الأساسى للمعلومات اللازمة لصنع القرار (٧) .

ثانيا : المضامين الدرامية

تستورد كل الأقطار العربية بلا استثناء مضامين درامية من الخارج فى أشكال متعددة (مسلسلات وأفلام سينما ، وأفلام فيديو ، وبرامج ترفيهية ، ومنوعات .. إلخ) وبنسب مختلفة وليست العبرة فى تقديرنا بكم المضامين المستوردة ، على الرغم من أنها تعكس نسبة العجز فى توفير الاحتياجات الدرامية المحلية ، ولكن العبرة فى كيف المضمون .

لقد طور كثير من الأقطار العربية نظمه الإعلامية منذ منتصف عقد السبعينيات . بعضها طور نظمه فى سياق بناء الدولة بما توافر لديه من عوائد مالية نتيجة للانفجارات المتوالية فى أسعار النفط ، وطور البعض الآخر نظمه الاتصالية فى مرحلة التقاط الأنفاس بعد حرب أكتوبر / تشرين ١٩٧٣ ، وبعد أن تهالكت نظمه طوال مرحلة الانغماس فى الاستعداد للحرب . وطور البعض نظمه الإعلامية بمعدلات أقل وبنسب متفاوتة . وانصب هذا التطور فى أغلب الأحوال على تطوير أو بناء نظم توزيع ونشر المضمون دون أن يشمل ذلك وبنسبة معقولة بناء القدرات الإنتاجية . القدرة على إنتاج مضامين درامية محلية جيدة –

= انظـــر

Jonathan King, "VISNEWS and UPTIN : News film Supermarkets in the Sky," in Jim Richstad & Michael Anderson, eds, Crisis in International News: Policies and Prospects, N.Y.,Columbia Unversity Press, 1981, PP. 296 - 297.

(٧) ذكر رئيس إحدى الدول العربية فى حديث له مع شبكة cnn أنه يعتبرها مصدره الأساسى لمتابعة الأحداث والتطورات الدولية . وتستخدم الشبكة نص مقولته للدعاية لنفسها .

وبقى عليه أن يستورد مضامين إعلامية من الخارج ، وأغراه على ذلك ارتفاع مستواها الفنى وانخفاض أسعارها ، والعجز الفعلى فى بعض الأحيان عن إنتاج مضامين محلية [٨] .

ولاشك أن ثمة مضامين إعلامية مستوردة جيدة (خاصة العلمية والثقافية)، ولاشك أيضا أن ثمة مضامين درامية مستوردة جيدة ، ولكنها قليلة إذا قيست بالنسبة الأكبر من المضامين الدرامية الضارة . وباستثناء هذه الأعمال الدرامية الجيدة نجد أمامنا فى الواقع العربى نوعين من المضامين الدرامية . الأول غير ضار بالقيم الثقافية ولكنه سطحى وهزيل ، والثانى ضار بالقيمة الثقافية والأخلاقية ، وهو الأغلب من حيث الكم ، ومعظمه إنتاج أمريكى .

والواضح أن وسائل الإعلام العربية ، والسوق العربية أيضا (بالنسبة لأفلام الفيديو) مفتوحة أمام هذا الطوفان ، ولايوجد قطر عربى واحد لديه سياسة إعلامية تنص على نسبة وكيفية ما يعرض من مضامين درامية مستوردة ، وإن وجدت فهى لاستهلاك الباحثين ، ولكنها غير مطبقة فى الواقع ؛ هذا فى الوقت الذى تتخذ فيه دول متقدمة عنا بكثير إجراءات حازمة تحدد كم ونوع المواد الدرامية المستوردة التى يسمح بإذاعتها محليا منها إنجلترا وفرنسا وكندا واستراليا [٩] . فإذا كنا نتفق على أن مثل هذه المضامين ضارة بقيمنا الثقافية ؛ فمن المسئول عن انسيابها إلينا عبر وسائل الاتصال المحلية ؟ وهل فرضت علينا أم إننا نحن الذين سعينا وراءها ؟

---

(٨) للإستزادة ، انظر راسم محمد الجمال ، الاتصال والإعلام فى الوطن العربى ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١ ، ص ١٩٨٥ ؛ و

Peter Golding, "Media Profossionalism in the Third World, The Transfere of Ideology, in James Curran et, al., eds, Mass Communication and Society, London, Edward Arnold Publishers, 1977, PP 299 - 300.

(٩) Owald Ganley & Gladis Ganley, To Informe or To Control: The New Cammunications Networks, N.Y., Mc Graw - Hill Book Company, 1982, PP. 61 - 64 & 80.

ومنذ أثير موضوع الغزو الثقافى على النطاق الدولى ، ويحذرنا بعض أساتذة الإعلام الأمريكيين من خطورة هذه المضامين على قيمنا الثقافية المتوارثة، ويحذروننا من أنها تسعى إلى إحلال الأنماط القائمة من التنظيم الاجتماعى بأنماط أخرى تتناسب مع الاحتياجات الاستغلالية لأنماط الإنتاج والاستهلاك الرأسمالى ، ومن حيث قدرتها على تحويل التوحد الثقافى القائم على أسس نظم مشتركة من القيم والمعانى (القوية والأصيلة المتوارثة) إلى نمط ثقافى متجانس وهش أساسه الوعى الزائف بالتقدم المتمركز حول قيم الأنانية والصراع والثراء المادى . (١٠) والأمريكيون أنفسهم يرون أن هذه الأعمال الدرامية الشهيرة تشوه الحياة والثقافة الأمريكية وصورة أمريكا فى الخارج (١١) ، وحتى الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون يؤكد أن الأعمال الدرامية الأمريكية الشهيرة مثل دالاس وغيرها لا تمثل المجتمع الامريكى وتشوه صورته . (١٢) وينصحنا أساتذة الاعلام الامريكيون بأن نقيم أية حواجز نستطيع إقامتها فى وجه هذه الأعمال الدرامية الوافدة حماية لثقافتنا ، وأن نرشح هذا الطوفان المتدفق علينا من الحضارة الغربية حماية لنظمنا الاجتماعية والثقافية ذات التواصلية والموثوقية العالية ، وأن نختار من مظاهر الحياة الغربية ما يمكن امتصاصه بنجاح دون تدمير التوازن الدقيق الذى يميز أية ثقافة مستقلة تحاول المحافظة على توازنها فى العصر الحديث . (١٣) فهل يعى قادة نظم الإعلام القطرية هذه الحقائق ؟ ولماذا تتغافل الرقابة على المصنفات الفنية عن كثير من المضامين والأشكال التى لاينبغى إغفالها مع الأزمات الداخلية والخارجية التى تتعرض لها النظم القطرية ؟ ألا تمثل هذه المضامين استفزازاً من قبل قادة نظم الإعلام القطرية للغالبية العظمى من جماهيرها ذات التوجهات الثقافية المحافظة ؟

(١٠) Larry Gross, "How True is television Coverage", in UNESCO, Getting the Message Across, Paris, PUNESCO, Press, 1975, PP. 47-48.

وانظر أيضا ، هربرت شيللر ، المتلاعبون بالعقول ، ترجمة عبدالسلام رضوان ، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١٠٦ ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٦ .

(١١) Ganley & Gamley, To hoform Or To Control, op. cit., 63

(١٢) ريتشارد نيكسون ، الفرصة السانحة ، ترجمة أحمد صدقى مراد ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٢ ، ص ١٩١ .

(١٣) Larry Grosss, How True is television Coverage, op. cit., PP. 49-50.

ثالثا : البث المباشر عبر الأقمار الصناعية :

عندما فكر العرب فى الاتجاه إلى الفضاء كان الأمل معقودا ـ خاصة لدى الإعلاميين العرب ـ فى أن تكون هذه التكنولوجيا وسيلة لنشر وتنمية الثقافية القومية . وبالفعل نشطت الأجهزة المعنية بالثقافة والإعلام التابعة لجامعة الدول العربية فى التخطيط البرامجى لهذا الطموح القومى . ولكن للأسف فإن الواقع منذ إطلاق أول قمر فضاء عربى عام ١٩٨٥ مخيب للآمال . وبالإيجاز الشديد ، إن أثر المتغير السياسى على التفاعل الإعلامى والثقافى يعطى مثالا صارخا على قسوة الواقع الذي مازال يهدر الفرص التاريخية ، ويطيح بالآمانى القومية ؛ وأوضح دليل على ذلك وضعية الشبكة الفضائية العربية فيما يختص بالتفاعل الثقافى والإعلامى على المستوى القومى .

وقد اتجهت بعض الأقطار العربية إلى البث الفضائى المباشر من خلال إنشاء قنوات تليفزيونية فضائية ، ومعظمها يبث عبر الأقمار الأوروبية ، والأقطار التى تبث عبر قناة عربسات الغزيرة الإشعاع تفكر فى التحول إلى الأقمار الأوروبية.

ويمكن استقبال القنوات التليفزيونية التى تبث عبر الأقمار الأوروبية فى كل أنحاء الوطن العربى بوضوح . وتقع دول المغرب العربى فى بؤرة بث هذه الأقمار (١٤) ، مما جعل من السهل التقاطها بأطباق استقبال صغيرة ورخيصة الثمن . أما القنوات التليفزيونية التى تستخدم هذه الأقمار فتغطى مجالا واسعا من المضامين الإعلامية والثقافية تمتد من القنوات الدينية الأصولية التى يطلق عليها الكنائس المرئية فى أقصى الطرف إلى أقصى الطرف الآخر الذى تحتله المضامين الجنسية . ويكفى للدلالة على مدى الوفرة والتنوع وامتداد المضامين ما بين المفيدة جداً مثل قنوات المعلومات والسيئة جداً الذى تشغله المضامين الجنسية أن نذكر أن أحد الأقمار الأوروبية «أسترا رقم ١» تبث من خلاله ٢٦ قناة تليفزيونية يتهافت أمام أى منها البث المحلى لأى قطر عربى (١٥) .

---

(١٤) للاستزادة عن هذه الأقمار ومداراتها والقنوات التليفزيونية التى تبث عليها ، انظر :
John Breeds, Satellite Television, Wilts, Swift televison Publicatins, 1992.

(١٥) للقارىء أن يطلع على أى عدد من مجلة What Satellite الشهرية التى تقدم عرضاً للجديد من المواد والبرامج على كل القنوات التليفزيونية الفضائية الأوروبية .

ويسمح عدد من الأقطار العربية لمواطنيها باستقبال القنوات التى تبثها أقمار البث المباشر دون قيود ما إلا فيما يخص بعض المواصفات الفنية كأن لا يسمح بتركيب أطباق يصل قطرها إلى ثلاثة أمتار ، ولا نعرف مغزى موضوعيا لهذا إلا إذا كان الأمر يتعلق بالنواحى الأمنية والعسكرية ، وما وراء ذلك لاتوجد أية قيود . ويجرى تصنيع هذه الأطباق محليا فى بعض الأقطار العربية ، ويسمح باستيراد مكوناتها اللازمة للاستقبال ، وتنتشر فى بعض الأقطار نظم استقبال رخيصة الثمن ، وتسوق بنظام التقسيط .

يذكر حمدى قنديل أن موقف المسئولين العرب من البث المباشر يندرج فى نهاية الأمر تحت واحدة من أربع فئات :

١ - فريق يؤيد الانفتاح التليفزيونى لأسباب مختلفة ، منها أن المواطنين العرب يستمعون بالفعل إلى الاذاعات الأجنبية دون عائق ، وأنهم فى بعض البلدان العربية يشاهدون فعلا البث التليفزيونى لأقطار عربية أخرى أو لدول أخرى، أو أنه من غير الممكن التصدى لهذا التقدم التكنولوجى ، وأنه يجب الثقة فى وعى المواطن العربى والثقة فى قدرات محطات التليفزيون المحلى .

٢ - وفريق متخوف من هذا الغزو الثقافى لأسباب مختلفة من بينها أن البث الأجنبى سيحمل قيما مخالفة لقيم المجتمع العربى ، وأنه قد يروج فى بعض الأحيان لدعايات كاذبة وقد يهدد الأمن القومى ذاته ، وأنه سيشبع أنماطاً من السلوك الاستهلاكى مما سيؤدى إلى تخريب الاقتصاد الوطنى ، وسوف يسرق المشاهدين العرب لتحرره الأخلاقى والسياسى . وأن القبول بفتح الأبواب للبث الأجنبى المعادى خاصة الموجه من إسرائيل يعد بمثابة تطبيع للعلاقات الاقتصادية والسياسية مع إسرائيل .

٣ - وفريق ثالث يؤيد السماح والمنع الانتقائى ، كأن نسمح باستقبال البث الموجه من الدول الصديقة ، ونمنع ذلك الموجه من الدول المعادية ، أو كأن نسمح بالاستقبال لأولئك المسلحين بالعلم والوعى دون غيرهم ، هذا إن

استطعنا تحديدهم وقصر الاستقبال عليهم . أو كأن نسلم بأن القادرين دون غيرهم سوف يستطيعون شراء الأجهزة التى تمكنهم من التقاط البث .

٤ - والفريق الرابع يضم أولئك الحائرين بين إيمانهم بحرية الاتصال ورغبتهم فى صون ذاتيتهم الثقافية ، وهم كثيرون [١٦] . وتعبيرا عن هؤلاء صدرت توصيات منتدى الفكر العربى فى ندوته عن القمر الصناعى العربى وآفاق تنمية الثقافة القومية عام ١٩٨٦ [١٧] .

رابعا : الاختراق الإعلامى من الداخل

ثمة شكل خطير من أشكال الاختراق الإعلامى كثيرا ما نغفله ، يتمثل فى الأنشطة والممارسات الإعلامية التى تقوم بها السفارات والمكاتب الإعلامية التابعة لها فى العواصم العربية . وعندما تمارس هذه السفارات ومكاتبها الإعلامية وظيفتها الإعلامية فى إطار دبلوماسية وسائل الاتصال التى تدعم الدبلوماسية الكلاسيكية دعما لرؤية ومواقف أو شرح لتوجهات دولها بأساليب واضحة ومشروعة فذلك أمر لا غبار عليه ، ولا نعده شكلا من أشكال الاختراق الإعلامى .

ولكن هذه السفارات ومكاتبها الإعلامية كثيرا ما تتجاوز ذلك إلى ما يدخل

---

(١٦) حمدى قنديل ، «الهموم السياسية والعمل المشترك فى مجال الاتصالات الفضائية» ، مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٤٤ ، يوليو / تموز ، وسبتمبر/ ايلول ١٩٨٦ ، ص ٥٧ - ٥٨.

(١٧) تصف التوصيتان رقمى ١١ ، ١٢ من بيان المنتدى ما يلى :

«١١- السعى إلى وضع اتفاقية بين البلدان المحيطة بالبحر المتوسط على غرار اتفاقية برشلونة المتعلقة بمقاومة تلوث البيئة تهدف إلى حماية سكان تلك الأقطار ، ومن بينها الأقطار العربية من ذلك التلوث الأخلاقى والثقافى الذى ينتج عن برامج الأقمار الصناعية المزمع بثها عن طريق الأقمار الأوروبية ؛ وأن تتولى جامعة الدول العربية من خلال الحوار العربى الأوروبى تضمين هذا الموضوع فى القضايا الأساسية فى الحوار مع المجموعة الاقتصادية الأوروبية».

«١٢- بث البرامج الثقافية المختارة التى يتم التحقق من صلاحيتها فى إطار أهداف التثقيف القومى بما يؤدى إلى إثراء الفكر والمعرفة العلمية والفنية لدى المواطن العربى» .

- انظر البيان الختامى لندوة منتدى الفكر العربى التى عقدت فى عمان ، ٨ - ٩ مارس / آذار ١٩٨٦ ، فى ندوة القمر الصناعى العربى وآفاق تنمية الثقافة القومية ، سلسلة الحوارات العربية ؛ ٩ ، (عمان : منتدى الفكر العربى ، ١٩٨٦) ، ص ١٥٨.

فى صميم الاختراق الإعلامي . فوكالة الاتصال الدولى الأمريكى USICA – على سبيل المثال – إلى جانب كونها الجهاز المكلف بشرح السياسة الخارجية الأمريكية لشعوب العالم ، وتعزيز تفهمها لتلك السياسة تشارك فى وضع هذه السياسة عن طريق إبقاء البيت الأبيض ووزارة الخارجية والدوائر الأخرى المعنية على اطلاع باتجاهات الرأى العام الخارجى فيما يخص السياسة الأمريكية . كما تزود الوكالة الأجهزة الحكومية المعنية بدراسات عن ردود الفعل الأجنبية المتوقعة على قرارات سياسية تزمع الإدارة الأمريكية أو الكونجرس اتخاذها ، وعن تأثير الرأى العام الخارجى على النشاط الإعلامى الأمريكى ، وتقوم الوكالة أيضا بإعداد دراسات سرية تتضمن اقتراحات للتأثير على الرأى العام الخارجى . وتعتبر وزارة الخارجية الأمريكية مصدر الوكالة الرئيسى للحصول على التوجيه السياسى (١٨) .

وتعد وسائل الاتصال القطرية وكبار رجال الإعلام بها المنافذ التى تمارس من خلالها السفارات الأمريكية ومكاتبها الإعلامية كل المهام السابقة . وثمة سبل عديدة تتبع لاختراق الوسط الإعلامى الداخلى فى الأقطار العربية ، تمتد من تقديم المعلومات والخلفيات ، إلى تبادل المجاملات ، وفى المقابل يتبرع هؤلاء ليس فقط بمجاملة التوجهات الأمريكية بكل أشكالها – ولو بالصمت – ولكن بإفساح المجال فى وسائل الاتصال القطرية للمضامين الإعلامية والثقافية «الجاهزة» الواردة من المكاتب الإعلامية الأمريكية .

خامساً : الاختراق الذاتى :

وهناك اختراق إعلامى ذاتى يقوم به الإعلاميون العرب أنفسهم فى وسائل الإعلام القطرية . من مثقفين وأشباه مثقفين ، عندما ينقلون إلينا يومياً من وسائل الاتصال الأجنبية مضامينها الثقافية ، حتى تلك التى تتعلق بأنماط الثقافة المعاشة بدءاً من الأزياء والديكور والأطعمة وتصفيفات الشعر وغيرها من موضات

---

(١٨) للاستزادة أنظر : سليم عبد الرحيم ، «النشاط الإعلامى الأمريكى الرسمى فى الوطن العربى» شئون عربية ، العدد ١٧ ، يونيه / حزيران ١٩٨٢ ، ص ٢٦٠ – ٢٦٨ .

الحياة «العصرية» إلى الوصفات الاجتماعية والتربوية والأخلاقية والنفسية ، لمعالجة أوضاع حياتنا اليوم وغداً . أليس هؤلاء أخطر على القيم الثقافية الذاتية من المضامين الوافدة مع البث المباشر بالأقمار الصناعية ؟ ألاتدل هذه المضامين المنقولة بلا وعى عن عجز ذاتى عن إنتاج مضامين إعلامية محلية وتغطية العجز بالنقل أو الترجمة من وسائل الإعلام الأجنبية ؟ وهل هذا الاتجاه مقصود من قبل الإعلاميين الذين يرفعون أحيانا شعار الحداثة والعصرية و «التنوير» لمحاربة الاتجاهات التراثية ؟ وإذا كان هذا الاتجاه مقصودا فلمصلحة من ؟

لقد نمت الانتلجنسيا الوطنية فى الدول النامية تربويا وثقافيا وإعلاميا على المضامين والقيم المستوردة ، جزئيا على الأقل ، والتى جاءت من خلال الكتب المدرسية والمدرسين الأجانب . ولم تزل فئات من هذه الانتلجنسيا على ولاء ومنعطفة نحو هذه القيم عندما شبت وتولت قيادة النظم الإعلامية لبلادها . ولاشك أن هذه الفئات راغبة فى تنمية مجتمعاتها ، ولكنها كانت ولم تزل عاجزة عن إنتاج مضامين إعلامية محلية ، وعاجزة أيضا عن إضفاء الطابع المحلى على القيم الوافدة (١٩) . ولكن هذه الانتلجنسيا نجحت إلى حد كبير فى العديد من الأقطار العربية فى جعل هذه القيم الوافدة مقبولة جماهيريا من خلال تكرارها فى كل وسائل الاتصال ومن خلال مضامين شتى ، واستطاعت مع الزمن إضفاء الشرعية عليها وعلى ما يرتبط بها من سلع وخدمات . وشيوع هذه القيم وإضفاء الشرعية عليها ليس معناه أنها أصبحت قيما ثقافية وطنية بدليل أنها تتغير سريعاً مع كل تطور قيمى وسلعى وخدمى فى المجتمعات الوافدة منها .

وتبدو عمليات نقل القيم الاجتماعية والثقافية من الثقافات الأخرى أمرا طبيعيا ، لأن الأيديولوجيات التى نمت فى أطرها قيم الولاء والانعطاف نحو القيم الوافدة أيديولوجيات مستوردة . والدكتور محمد عابد الجابرى على حق عندما

---

(١٩) Y. U. Lakshaman Rao, "Information Flow From Advanced to Developing Countries, in UNESCO, Getting the Message Across, op, cit., PP. 80 - 81.

يقرر أن «الأيديولوجيات العربية ، ونعنى بها التيارات السياسية والاجتماعية والفكرية التى ظهرت على الساحة العربية طوال المائة سنة الأخيرة لم تكن فى نظرنا فى يوم من الأيام عربية بالمعنى العلمى . نقصد أنها لم تعد علميا من الواقع العربى ، على الرغم من أنها حملت بشكل أو بآخر ، إلى هذا الحد أو ذاك بعض الطموحات و الاحلام العربية» . و «الواقع العربى هنا لم يكن ينظر إليه على أنه المعطى الأول ، بل لقد كان المعطى الأول دائما هو التحليل الذى يطبق فى واقع آخر» (٢٠) .

ولكن هذا الوضع يعبر من ناحية ثانية عن عجز الانتلجنسيا الوطنية عن توليد نسق أيديولوجية وطنية . فما إن تم التحرر السياسى حتى وجدت هذه الانتلجسيا نفسها كلقيطة عليها أن تبحث عن أب ، لاسيما وأنها مع بدايات عهد التحرر خاضت معارك التصفية للتيارات الوطنية التراثية ، وكان عليها أن تتجه يمينا أو يسارا ، أو تتجمد فى مكانها إلى أن تحدث ثورة أو انقلاب يمثل وليدا غير شرعى لليمين أو اليسار . ولم يقتصر ذلك على السياسة والاقتصاد والاجتماع فحسب ، ولكنه تجلى فى مجالات الإعلام والثقافة والتربية والبحث العلمى ذاته الذى تولى إضفاء الشرعية المفتقدة على الأب الجديد (٢١) . وعلى هذا فلا نعتقد بصحة ما ذهب إليه مجد الدين خيرى من أن المجتمع العربى أضفى الشرعية على التكنولوجيا الغربية وحجبها عن الأخذ بالقيم الغربية المصاحبة للتكنولوجيا ، وأن هذا المجتمع «بشكل عام إنما يسير نحو نموذج حضارى خاص به ينبع بشكل أساس من مميزاته البنائية التاريخية . وهذا النموذج الحضارى الخاص لايمكن أن يتشابه مع النموذج الغربى ، وذلك لوجود مميزات بنائية عربية تمنع حدوث مثل هذا التشابه» (٢٢) .

---

(٢٠) فرحان صالح ، «حول الأوضاع العربية الراهنة - مقابلة مع الدكتور محمد عابد الجابرى» ، المستقبل العربى ، السنة الخامسة ، العدد ٤٥ ، نوفمبر /تشرين الثانى ١٩٨٢ ، ص ١١٤ . وانظر أيضا برهان غليون، «الهوية الثقافية والسياسة الثقافية فى البلدان التابعة» ، الفكر العربى المعاصر، العدد ١٧، ديسمبر/ كانون الاول ١٩٨١ و يناير/ كانون الثانى،١٩٨٢، ص١٧- ٢٩

(٢١) انظر وجيه كوثرانى ، «الغزو الثقافى العربى الممهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث» ، شئون عربية ، العدد ٢٧ ، مايو / أيار ١٩٨٣ ، ص ١٣١ - ١٣٤ .

(٢٢) مجد الدين خيرى ، «حول مستقبل الوطن العربى» ، المستقبل العربى ، السنة ٨ ، العدد ٨٥ ، مارس/ آذار ١٩٨٦ ، ص ١٢٦ .

وعلى هذا فإن كان جلب مضامين إعلامية مستوردة وغربية على يد الانتلجنسيا الوطنية أمراً طبيعياً نتيجة لعجزها عن بناء أيديولوجية وطنية ، وإنتاج مضامين إعلامية محلية . فليس بمستغرب أن نجعلها أحد أشكال الاختراق الإعلامى . ولم يكن متوقعا أن يتحسن الحال مع تطوير نظم الاتصال القطرية منذ منتصف عقد السبعينيات على نحو ما أسلفنا ، فإن التطوير شمل البنى الأساسية والمرافق الإعلامية ، فى حين زاد الاعتماد على المضامين الوافدة نتيجة لعدة أسباب من بينها عجز الانتلجسيا الوطنية [٢٣] .

اختراق أم تفاعل إعلامى ثقافى :

نود أن نسوق عدة طروحات ذات علاقة بالموضوع ، وهى :

أولا : أن التفاعل الثقافى الدولى أمر حيوى ومطلوب توافره فى البيئة الدولية المعاصرة ، اتضحت أهميته وتركزت حوله الدراسات منذ منتصف عقد الستينيات فى خضم الصراع الايديولوجى بين الشرق والغرب . ومن أبرز الذين اهتموا بالتفاعل الثقافى ودوره فى العلاقات الدولية بريانت ودج وزملاؤه الذين أكدوا أن كثيرا من المشكلات الدولية ناجمة عن سوء فهم كل طرف للطريقة التى يفهم بها الطرف الآخر الموقف فى نسق ثقافته الخاصة ، ونشأت منذ ذلك الحين الدعوة إلى فهم الثقافات الأخرى وقيمها ورموزها والتفاعل معها على اعتبار أن

---

(٢٣) «وبإيجاز شديد يبدو أن البلدان العربية تحولت فى النصف الثانى من عقد السبعينيات إلى تبعية أقوى للدول الغربية المصنعة . وليست التبعية اقتصادية فقط ، ولكنها تمتد فى مجالاتها الأخطر إلى التقنية والحضارة .

«وتتجسد التبعية التقنية فى الاعتماد على استيراد السلع الاستهلاكية وأدوات ومستلزمات الإنتاج السلعى والخدمى من الدول الغربية المصنعة وتتعدى ذلك إلى التقنية الناعمة ، مثل الخدمات الاستشارية والتنظيمية والتسويقية . كذلك تبدو التبعية الحضارية أشد ما تبدو فى النمط الاستهلاكى الغربى الذى يجتاح البلدان العربية على تباين توجهاتها الاجتماعية والسياسية ، والشواهد أن تبعية البلدان العربية قد تأكدت فى هذين المجالين فى النصف الثانى من السبعينيات ربما أكثر من التبعية الاقتصادية البحتة» . – نادر فرجانى ، هدر الامكانية ، الطبعة الثالثة (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣)، ص ٨٤ .

ذلك التفاعل يمثل مدخلا أساسياً للتفاهم السياسى الدولى [٢٤] . وعلى الرغم من ذلك ، ومع الإقرار بأن وسائل الإعلام الإخبارية قادرة على تنمية وتوسيع نطاق التفاهم الدولى ، فإنه لايمكن القول بأن ثمة تفاعلا ثقافيا فعليا على المستوى الدولى سوى فى حالات معينة كتفاعل الثقافات الغرب أوروبية والتفاعل بينها وبين الثقافات القريبة منها وخاصة الأمريكية ، وأن الوضع القائم فعلا علي المستوى يؤكد وجود اختلال وتفاوت إعلامى وثقافى صارخ تهيمن فيه ثقافات دول الشمال على ثقافات الدولة النامية العاجزة عن المشاركة فى هذا التفاعل لأسباب شتى بعضها يخص الدول النامية ذاتها ، وبعضها الآخر ناجم عن التفاوتات الكبيرة فى قدرات كل من الشمال والجنوب فى كل المجالات التى تمثل مدخلات التفاعل أو التبادل الإعلامى والثقافى المتوازن أو شبه المتوازن ، ولا يشهد الوضع الدولى سوى تدفقات إعلامية ثقافية قوية من دول الشمال فى اتجاه دول الجنوب يقابلها تدفقات هزيلة فى الاتجاه العكسى [٢٥] .

ثانيا : أن ثمة اتجاهاً عربيا يتوافق مع اتجاهات مدرسة التبعية فى الإعلام ، يرى أن العالم العربى مستهدف بعمليات اختراق إعلامى من قبل الدول الرأسمالية ، يسير جنباً إلى جنب مع عمليات دمج اقتصاديات الدول النامية مع اقتصاديات الدول المتقدمة اقتصادياً وسياسياً ، يصحبه اختراق لمناهج الفكر السياسى العربى ولمناهج العلوم الإنسانية ، وحتى مناهج دراسة الإسلام ودراسة التاريخ الإسلامى . وأن أحد أساليب الاختراق هو تنمية أذواق الاستهلاك بحجة التحديث على غرار نمط المجتمع الصناعى مع ما يتطلبه ذلك من ضعضعة القيم الثقافية المحلية ، وتكييف القيم الدينية، والإلغاء التدريجى

---

(٢٤) انظر على سبيل المثال .

Bryant Wedge, "Communication Analysis And Comprehensive Diplomacy", in Arthur Hoffman, ed., International Communication and the New Diplomacy, Bloomington, Indiana University Press, 1968, PP 24 - 47.

(٢٥) "From Freedam of informatan to the Free Flow of information, From the Free Fliw of information to the Free and Balanced Flaw of information", Paris : UNESCO, 1978, (CIC Document; no. 8), memeo, PP. 15 - 17.

للتقاليد والقيم والأذواق المتوارثة . [٢٦] وهذا الاتجاه مقبول فى مجمله ، ولكن يرد عليه تحفظ مهم وهو أن كل هذه المضامين مجلوبة أو مدعوة من الداخل وليست مفروضة علينا ، وأن نظم الاتصال الوطنية هى المسئولة أساساً عن انسيابها للداخل .

ثالثاً : أن قضايا الاختراق الإعلامى والغزو الثقافى لا تشغل سوى فئة من المثقفين العرب ، ولا ترد على بال أو لا تحظى بأهمية لدى مديرى نظم الإعلام الوطنية ، أو الأجهزة البيروقراطية التى تقرر ما يستورد وما ينشر أو يذاع [٢٧] . ومع انعدام هذه الرؤية لا نلحظ على مستوى غالبية الأقطار العربية محاولات جادة لإنتاج مضامين إعلامية راقية تحافظ على استمرارية الهوية الثقافية . وحتى الباحثون العرب الذين عالجوا موضوع التنمية الثقافية فى الوطن العربى لم يهتموا بتطوير وسائل الاتصال الوطنية لاشباع إحتياجاتها ذاتيا فى المجالات الإعلامية والثقافية [٢٨] . ولكننا نلاحظ اتجاها فى كثير من الاحيان لمحاكاة المضامين والبرامج الإعلامية الأجنبية تحت شعارات شتى مثل الانفتاح الثقافى أو تحت مسمى التحاور الإعلامى الثقافى أو المشاركة فى عصر الفضاء.. إلخ[٢٩].

---

(٢٦) وجيه كوثرانى ، الغزو الثقافى الغربى المعهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث فى الوطن العربى، مرجع سابق ، ص ١٢٧ – ١٢٩ ؛ وحامد عمار ، «بعض محاور الثقافة القومية فى برامج القمر الصناعى العربى» ، ورقة قدمت إلى : ندوة القمر الصناعى العربى وأفاق تنمية الثقافة القومية مرجع سابق ، ص ١٢٨ – ١٣٠ .

(٢٧) ترى عواطف عبد الرحمن أن الدول النامية تحصل على ما يمكن وصفه بأى مقياس موضوعى بأنه أسوأ ما ينتج فى الدول الغربية . انظر عواطف عبدالرحمن ، قضايا التبعية الثقافية والإعلامية فى العالم الثالث ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٤ ، سلسلة عالم المعرفة ٧٨ ، ص ٧٠ .

(٢٨) انظر على سبيل المثال بهاء الدين الزهورى ، «التنمية الثقافية فى العالم العربى» ، شئون عربية، العدد ٤١ ، مارس / آذار ١٩٨٥ ، ص ١٤٢ وما بعدها .

(٢٩) «ولقد أدت الأحداث الأخيرة فى السنوات العشر الماضية إلى فقدان الثقة بالنفس كقيمة من القيم السيكولوجية نتيجة للانكسارات والإحباطات التى منى بها العرب كمجموعة حتى شاع استخدام «الزمن الردى»» على هذه الأيام، كأن الزمن نفسه يمكن أن يكون رديئا أو جيدا . ولقد أضاف إلى توهين الثقة بالنفس ما يتردد من هجمات إستشراقية على القومية العربية وإمكانية =

ومع ذلك فإن توعية هذه الأجهزة البيروقراطية بخطورة ما يقومون به قد لا يفيد كثيرا لأنهم فى الغالب منفذون لتوجهات قادة النظم الإعلامية الذين يستشرفون بدورهم – وبصورة مباشرة أو غير مباشرة – توجهات السلطة .

كيف نحمى هويتنا الثقافية :

إذا أردنا مناقشة كيفية حماية هويتنا الثقافية فى مواجهة هذا الاختراق الإعلامى فقد يكون من المفيد أن يدور النقاش حول قضايا محددة ، نطرح منها ما يلى :

أولا : ينبغى أن ننحو منحى عملياً يعالج واقعا معاشاً بالفعل بعيداً عن المعالجات الفلسفية والايديولوجية التى غصنا فيها لسنوات طويلة دون أن تعالج شيئا ، ودون أن يتحسن واقعنا الإعلامى والثقافى .

ثانياً : وينبغى أن يبدأ النقاش من دور السلطة السياسية والانتلجنسيا التابعة لها ، أو غير المنتمية ثقافيا فى عمليات الاختراق الإعلامى (٣٠) ، وذلك فى تقديرنا المدخل الأساسى لبلورة المشكلة فى واقعنا العربى .

ثالثا : وإذا كان علينا أن نتطرق إلى موضوع حماية الهوية الثقافية العربية فى مواجهة هذه المشكلة ، فيحسن أن نحدد المقصود بالهوية الثقافية العربية أولا وذلك لسببين ، أولهما – أن التعددية والتنوع فى الثقافات العربية

= التوحد بين العرب . وقد صاحب هذا الهجوم الأكاديمى وسبقه الإعلام الغربى وبخاصة فى أمريكا حين أخذ بصورة إسرائيل كأنها رسول للحضارة الغربية وسط صحراوات العرب ، وأداة للمصالح الغربية فى هذه المنطقة ، ومن خلال غيرها من الوسائل فى عملية التحديث ، ازداد وعاء الثقافة العربية اختلاطا واهتزازا» .

– حامد عمار، بعض محاور الثقافة القومية فى برامج القمر الصناعى العربى، مرجع سابق، ص١٢٩.

(٣٠) «وأن أى نظام يكون قادرا على التحاور الحقيقى العميق ، وعلى الاستجابة الطبيعية الواعية لهذا التحاور ، وإن كان أحيانا يتعارض مع بعض قواعد لعبة الحكم المعروفة ، فإنه نظام قوى وصحى قادر على المساهمة الفعالة فى تأكيد الهوية الثقافية وإحداث التغيير الثقافى، حتى ولو كان هذا التغيير تحدياً للعديد من الثوابت التى يركن إليها الحكم فى ممارسة مهامه» .

محمود سعيدى ، «الهوية الثقافية وسياسة تطوير الثقافة» ، الباحث ، السنة السادسة ، العددان رقما ٣١ ، ٣٢ ، كانون الثانى / يناير – نيسان / أبريل ١٩٨٤ ، ص ١٣١ .

المعاشة الآن وكلها مخترقة بأشكال متشابهة وبدرجات مختلفة ، تدخل كثيرا من الوهن على مفهوم الثقافة العربية [٣١] ، بحيث أصبح مفهوم الثقافة القومية فى حاجة إلى إعادة تعريف . وثانيهما – أن العرب أنفسهم يتهمون بعضهم البعض بالاختراق الإعلامى .

رابعا : قد تمثل المقولة التالية مدخلا لمناقشة حماية الهوية الثقافة على المستوى القطرى ، وتحديد إطار عام لحمايتها على المستوى القومى :

«إن تاكيد وتطوير الهوية الثقافية العربية ، مع الانفتاح على المضامين الإعلامية والثقافية الأجنبية الجيدة ، دعم للتواصل الثقافى ، فى إطار من التوازن، يتيح للمجتمع أن يتطور دون أن يفقد هويته الأصلية ، أى أن يتقبل التغيير دون أن يغترب فيه . إنه التفاعل بين الأصالة والتجديد . وإن تاكيد الذاتية الثقافية لا ينفصل عن القيم المرتبطة بالتراث بمعناه العام ، ولذلك لابد من العمل على صيانة هذا التراث وإحيائه على أن يكون هذا العمل مرتبطا بالعقل الإبداعى ومنطلقا للثقافة ومنبعا لتجديد مستمر لإبداعية تتغذى من كل أشكال الثقافة الذاتية الموروثة . وعلى أن يتم هذا التفاعل فى إطار الدين والقيم الروحية باعتباره محاولة « لضبط » السياسة الإعلامية والثقافية وتجديد معالمها » [٣٢] .

---

(٣١) «وبخصوص موضوع التعددية فى الوطن العربى ، اتجهت المناقشات نحو اعتبارها حقيقة واقعة ينبغى عدم إهمالها ، وأن ينظر إليها باعتبارها مسألة طبيعية . فمقابل التنوع والتعددية فى الثقافات النوعية ، هناك أسس مشتركة وقاسم أعظم مشترك يمكن تنميته وتطويره . إن النظر لواقع التعددية فى المنطقة العربية ينبغى ألا نتناوله – كما ورد فى النقاش – باعتباره مثبطا ومثيرا لكل ما هو سلبى ، وإنما ينبغى أن يطرح الموضوع وتطرح البدائل معه» . من مناقشات ندوة منتدى الفكر العربى ، ندوة القمر الصناعى العربى وآفاق تنمية الثقافة القومية ، مرجع سابق ص ٩١ .

(٣٢) اللجنة العربية لدراسة قضايا الإعلام والاتصال فى الوطن العربى ، نحو نظام عربى جديد للإعلام والاتصال : مشروع التقرير النهائى ، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٥ ، ص ٩٧ – ٩٨ ؛ ومحمود سعيدى ، الهوية الثقافية وسياسة تطوير الثقافة ، مرجع سابق، ص ١٢٨ – ١٢٩ ؛ وانظر أيضا توصيات المؤتمر الأول لوزراء الثقافة العرب الذى عقد فى عمّان ، ٢٠ – ٢٣ ديسمبر / كانون الاول ١٩٧٦ ، فى بهاء الدين الزهورى ، التنمية الثقافية فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ – ١٤٢ .

خامسا : ويرتبط بالمقولة السابقة المقولات الفرعية التالية :

١ – لايمكن حماية ثقافة ما غير قادرة على تطوير ذاتها ، ولايمكن حماية وتطوير ثقافة مفروض عليها الانغلاق أو الانعزال ، حتى على افتراض إمكانية فرض هذا الانغلاق أو الانعزال (٣٣) .

٢ – إننا نعتقد أنه من الصعب فرض أى قيم أو أنماط ثقافية على ثقافة مجتمع آخر ما لم يكن هذا المجتمع مهيأ لذلك .

٣ – نظرا لمركزية نظم الإعلام فى الأقطار العربية ، فإنه يقع على السلطة مسئولية دعوة المضامين الإعلامية ومسئولية وضع سياسات إعلامية ثقافية لحماية الهويات الثقافية القطرية .

* * *

---

(٣٣) Lakshamana Rao, International flow from Advanced to Developing Countries, op. cit PP. 81 - 82 .

«وبالتأكيد فإن الشعوب التى تثبت عجزها عن تطوير ثقافاتها القومية تبعا للتقنيات الجديدة فى الاتصال وفى أنماط التعبير ستشهد خراب ثقافاتها وتفكيكها تدريجيا . إن المنافسة بين النماذج الثقافية على مستوى القيم والإنتاج قوية قوة المنافسة الدائرة بين النماذج الثقافية المختلفة» .

– برهان غليون ، الهوية الثقافية والسياسة الثقافية فى البلدان التابعة ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .